

الوصولية في «الرجل الذي فقد ظله»

بقلم محمد محمود عبد الرازق

قريبى أو رحم محرم .. وكذلك الحال في شتى مناحي الحياة .. في الفن والمال والتجارة ..

وعلى سبيل التلانة على ذلك ، عرض ثلاث حالات بنيت على اكثافها الرواية .

الحالة الثالثة : يوسف عبد الحميد السويفي (بطل الرواية) مشى فشتل لانها لم تعرف طريق الوصول .. او بمعنى اخر الطرق الانتهازية للوصول .

الحالة الثانية : سامية سامي .. عرفت طريق الوصول ، ولكنها فشتل عندما حكمت قلبها

الحالة الثالثة : يوسف عبد الحميد السويفي (بطل الرواية) مشى في الطريق الى نهايته حتى بز استاذة في الوصولية والصحافة - محمد ناجي .

اما عن مبروكة فمن الواضح ان هذه الفتاة التي طلفت حياة الريف واستمرت حياة المدينة كان اخشى ما تخشاه ان تعود : الى القرية حيث الجوع والعري والعيش بلا امل . ولا نراها تطمع في بداية الامر في اكثر من « مكوجي » ويتضح انه لص يستغل الخدمات في المسرفة « وكبرت .. وادركت مع كل هذه السنوات مركزي الحقيقي في البيت .. خادمة نسيت ماضيها ، تذكر امها واخوتها وقرينتها . كانها حلم قديم .. حياتها كلها .. افراحها .. احزانها مرتبطة بما يدور في البيت .. » ومع مرور السنين ايضا كبر هدفها كما كبرت . « كنت اعرف ان ما بين سعاد ويوسف هو الحب ، وكنت اشعر بالغيرة نحو سعاد واقارن بينها وبينها انها ستتزوج يوسف ويصبح لها بيت مثل هذا البيت .. » اما هي فمن يحبها .. من يتزوجها . وتشبهها الان بعبارة المدينة بالذمة تسميت بعبارة القصر . لماذا لا تكون مثل سعاد ؟ « وخطر لي ان مدحت شاب وانا فتاة - اخو سعاد - وانه قد يحييني ويرغب في الزواج مني وسانرك معه هذا البيت : الى بيت اخر مثله ، ويكون لنا خدم وخدمات ، لماذا لا يحدث هذا هو كثير على الله ان يحققه » ولم يتحقق .. ضبظتهما سيده البيت فطردت من الجنة ، وبطردها تبدأ المرحلة الثانية من حياتها .

الحياة في بيت يوسف : شعرت سيده القصر ان قريب البسك - من بعيد - المدرس الفقير ، رجل عجوز يحتاج الى من تخدمه فقررت نقلها الى بيته .. وعندما دخلت البيت شعرت ان المدرس العجوز والد يوسف خجل منها لتواضع مسكنه « فزاد كبريائي ونظرت حولي في ترفع كان البيت مقيضا ساكنا لا حياة فيه ، واحسست اني اكبر من هذا البيت .. اقوى منه .. » ومع ذلك فيوسف يصر على اعتبارها خادمة . وكان لا بد ان تثور بعد ان لاحظت مدى اعتدائها بنفسها . وفي ثورتها تتزوج والد يوسف مجرد ان تكون سيده البيت لا خادمته . فيترك يوسف البيت ويهوت الزوج مخلقا لها « ابراهيم » ويصبح يوسف محررا كبيرا في أشهر جريدة في البلاد . وعندما تلجأ اليه لمساعدة اخيه ينكر لها وبطردها الامر الذي دعا احد الرسامين بالجريدة الى العطف عليها ونقلها وولدها الى داره .

الحياة في وكر شيوعي : وكانت الدار اشبه بخلية شيوعية - بعد ان لاحظت في المرحلة الاولى من حياتها مدى اعتدائها بنفسها . وتلك مزية لا تتوفر في الوصوليين . لاحظ هنا انه كان بإمكانها ابلاغ البوليس عن الخلية وقبض الثمن . ولكنها لا تنكر للاصدقاء ولا تعرب اليد التي أحسنت إليها ، فضلا عن قطعها كما يفعل الوصوليون - وارتدت ان تشي

الاعداد الممتازة من الاداب تؤثر تأثيرا واضحا في سير الادب العربي وتطوره .. هذه ظاهرة لا يمكن انكارها .. فعندما صدر عدد يناير سنة ١٩٦٠ عن « الادب الثوري » ظل النقد بعده يقيم العمل الفني بمدى ثورته او مدى تجاوبه مع الثورة .. وكذلك سارعت جمهرة الكتاب الى ترائها القديم نابضة تلال الكلمات عليها تلتقي بحرف احمر ينير لها الطريق وتفاخر به غيرها .. وكان هذا التأثير واضحا ايضا في النتاج الادبي بعده ..

ومنذ صدور « الاتجاهات الفلسفية في الادب المعاصر » وهو العدد الذي ناقش علاقة الادب بالفلسفة ، والنقاد يقتنون عن فلسفة الكاتب في الفن والحياة من خلال اعماله التي يقومون بتقييمها ، سواء في ذلك الافصوصة او الرواية او المسرحية .. ولا ادعي ان ذلك قد صار - ديدنهم الا ان الواقع يبشر به .. وستظل الفكرة تؤرق الفنان العربي حينما من الدهر ، متقبا في ترائه ، باحثا في افوار نفسه عن فلسفة له ..

ونحن اذا اجلنا النظر في اعمال فتحي غانم الروائية السابقة على « الرجل الذي فقد ظله » . نرى مدى اعتماده على انقلاب البيئة كفكرة رئيسية يدور من باطنها الصراع حتى نهاية القصة او الرواية . فانتلاف البيئة عند فتحي غانم يؤدي الى التناقض ، او على الاقل ، الى عدم الفهم وعبثية التلاقي .. ففي قصة « من أين ؟ » يقذف المؤلف بفتاة من القمر الى الارض ، وفي رواية « الساخن والبارد » يرسل من بلاد الشمس المحرقة - بلاد العرب - فتى أزرق الشعر - على حد تعبيره - الى بلاد السويد .. بلاد الثلوج والشفقراوات .. وحتى في روايته الاولى « الجبل » نراه يدير الصراع بين اهل الجبل الذين يركنون الى كهوفه على امل وبين الحكومة التي تحاول اجبارهم على الانتقال الى قرية نموذجية حديثة .. وكذلك توجد شخصية « الخوجاية » التي تعيش « الجبل » مع اهله باحثة عن الذهب ..

فمصر الدراما الذي يؤدي الى نمو الحدث وتطوره ، ويقوم على وجوده الاختلاف والمفارقة يتبلور عند فتحي غانم في اختلاف البيئة . وليس هذا عنده عنصرا فنيا يعتمد به الصراع ويشند التشابك فحسب .. ولكنه في الواقع فكرة تكمن وراء قصصه ، وخطا رئيسيا يحقق وحدة النظر اليها ..

وتنتصر البيئة دائما فيترك البارد الساخن ، وتنفق القمرية من اخلاقيات الارض ، وينتصر المحقق لاهل الجبل ضد مهندس القريسة وهذه الفكرة .. نجدها ايضا في الجزء الاول من الرجل الذي فقد ظله وهو الجزء التي تحكيه مبروكة .. فالكاتب يلقي بهذه الصبية الريفية التي « لا ترى اللحم الا من العيد للعيد » الى قصر من قصور البرجوازية القاهرية لا يقطع اللحم من مطبخه . فاذا ما مجهها القصر فتاة يانعة ، ارتمت في وكر من اوكار الشيوعية وهي لا تعي مما يدور حولها شيئا . الا ان هذا الجزء بتكامله مع بقية الاجزاء الاخرى يخرجنا من نطاق هذه الفكرة الى نطاق جديد على روايات المؤلف .. فكما عاش البرنو مورافيا مجتمعة بحسن الفنان ووعيه - واهدانا « السام » . وكما عانى البير كامو من عبثية الحياة واخرج منها « الطاعون » ، تابع فتحي غانم مجتمعه في الخمس عشرة سنة الماضية .. شاهد النجوم التي تلمع والشهب التي تنطفئ واستقرأ الحوادث والاسباب التي أدت الى لمعانها وانطفائها ، ثم انتهى الى ان الوصولية هي الازمة التي يعانى منها العصر .. وهكذا كان « الرجل الذي فقد ظله » نجم من نجوم الصحافة تربع على عرشه الذي بناه من عظام ضحاياها غير عابء بذي

شوقي الرسام عن مبادئه فرفض . ورغم عدم فهمها لشيء مما يدور حولها ساعدت شوقي الذي تحبه .. ومن اجل انها تحبه في شراء ماكينة رونيوم لطبع المنشورات .. ساعدته بالنقود التي كانت تحرمها على نفسها .. وترى انها من حق ولديها فقط ..

وتأتي نهاية الورك على ايدي البوليس ويزج بشوقي في السجن وتضع .. تمضغ المرارة في كلمات توجهها الى شوقي الذي غاب « كنا نعيش من اجل حلم ، من اجل كلمات تهمس بها رغبة خفية في صدرينا .. كنا نحلم بحياة جميلة ، وكنت طموحة في حلمي ، فكنت افكر في الايام الحلوة التي سنعيشها معا .. وانت ، كان طموحك اكبر فكنت تفكر في الاحلام الغريبة التي لا افهمها ، فتحدثني عن الايام الحسنة التي سيعيش فيها الناس جميعا .. وما هي نتيجة طموحك وطموحي ، ايرضيك هذا .. ماذا اصنع الان ، انتهى كل شيء .. »

فهذه اذن هي نهاية الطموح في عصرنا اذا ما اتبعنا طريق ميروكه .. اذا ما كنا مخلصين لاصدقائنا واحباينا .. اذا اعتدنا بكرائنا ورفضنا ان نعامل بغير ما نستحقه .. اذا لم نودع السجن من نحب .. ورغم ذلك .. رغم هذه النهاية المؤلمة لفننا طموح .. رغم ترددها لتربية ولدينا الذي لم ترض له الحياة بلا هدف في القرية .. رغم انهيارها وضعفها امام نفسها .. فهي قوية امام الناس ، تستطيع ان تهدم وليس من طبيعتها الهدم .. قوية امام يوسف .. يخشاها كما لم يخش احد في حياته من كل الناس في حمايته وتحت امره ، لا ميروكه « ميروكه ليست في حمايتي ، انها تتحداني . البقي الخادمة لا تموت .. »

ويعتبر هذا الجزء - رغم النظرة التساؤمية التي تسيطر عليه وتطوفه - من امتع اجزاء الرواية .. ومن ناحية الشكل يعد قصة متكاملة النسيج ، من الممكن ان تقوم بذاتها لو زال عنها بعض الابهام الذي يكتنف موقف يوسف .. هذا الابهام الذي جلت به الاجزاء الاخرى في تكرار ملح سنعود اليه فيما بعد ..

واذا كانت ميروكه هي الضحية الرئيسية ليوسف . فالضحية التي تليها في الاهمية هي المثلة سامية سامي ، وهي انسانة طموحة ايضا تحلم بالمجد والشهرة عن طريق الاستفقال بالسينما ، ظهرت في ادوار صغيرة فاتكت بالوسط الفني ووعته ، وفهمت انها لن تستطيع صعود سلم المجد الا بالتردي . الا اذا ضحت بكل شيء .. واثن شيء وهي جميلة « ولكن جمالي كان هو العقبة التي سدت الطريق في وجهي ، ان دنيا السينما غاية مليئة بالذئاب .. كلهم ذئاب ، المنتجون والموزعون والمخرجون والممثلون والمصورون كلهم .. كلهم .. ذئاب .. حتى الصحفيون الذين يعومون حولنا في الاستديوهات .. » وعت الدرس .. ورضخت .. رضيت ان تكون الحمل الوديع في وسط هذه الغابة ، فهي لذلك تخرج مع انور سامي الممثل المشهور الذي منحها اسمه وبشرها بفتح ابواب المجد امامها .. وكل شيء له ثمن ، وهي تمنع الان في دفع الثمن ، لانها احبت .. احبت يوسف الذي ارتدى تحت قدميها معترفا بحبه فصدفته « من اجله تركت فرصة العمر .. ورفضت دور البطولة .. اما هو فما كادت تبرق امامه الفرصة حتى رفسني بقدمه .. وتركتني ابحرج وانحدر اسفل السلم ومضى هو يرتفع .. ويرتفع وحده .. لا اريد ان اخدع نفسي فاقول اني اكرهه واحقد عليه .. انا ما زلت احبه .. نعم احبه ! »

والوصولية الفاشلة هي الصورة الثانية لازمة العصر .. عرفت طريق الوصول .. عرفت انها يجب ان تكون العمل في وسط غابة من الذئاب ورضيت ، ولكن ازمته انها حكمت قلبها .. عندما حكمت قلبها تورغت في التراب .. هوت .. عندما احبت ضيعت فرصة العمر .. وقد يقول البعض : ذلك لانها احبت وصولي ، ولكن الرجال الذين كانوا يحيطون بها لم يكن فيهم من هو افضل من يوسف بالنسبة لعلاقته معها ، او نيته تجاهها رغم اختلاف مشاربهم وتباين الوانهم ، مدحت ، انور سامي ، محمد ناجي ، يوسف السويدي ..

فاذا ما انتقلنا الى شخصية هذا الاخير ، البطل الذي اسدر ماء وجهه في سبيل وصوله ، وجدنا انه الوصولي الناجح ، رمز أزمة العصر الحديث .. تنكر لافاربه واصدقائه واسانده .. قتل اياه بهجرة

اياه واستحى ان يبلغ محمد ناجي بموته خشيته حضوره الجناساز وكشف فقره . تنكر لآخيه وزوجة ابيه ، وشى بزميله الرسام الشيوعي وسجنه ، وشى بزميله وكيل النيابة ونقله ، انتزع الكرسي من تحت استاذة في الصحافة الوصولية وتركه يهوي امامه ، حطم حبيبته فتردت في هوات اليأس ، تركها في اليوم المحدد لعقد قرانه ليحز نضرا صحفيا على اثر انقلاب حسني الزعيم .. على اشلاء الضحايا اضحى رئيسا لتحرير اكبر جريدة يومية في الشرق ، وكبير مفكري العصر .

تلك هي مشكلة العصر .. لا نجاح الا باتباع طريق يوسف .. التعلبية والانتهاز .. ومع ذلك فالكتاب لا يرضى عن هذا الطريق ، فمفسر الوصولي احد امرين : ١ - اما ان يهوى كما هو محمد ناجي استاذ يوسف في الوصولية ، ٢ - واما ان يعيش مؤرق بخطئه ، معذب بمجده ، يرهبه الناس خشيته بطشه لا حبا فيه .. كما هو حال يوسف .

والهمس الذي دار حول هذه الرواية في مصر اكثر من النقد الذي كتب عنها ، بل انني لم اقرأ لها نقدا في مصر اللهم الا اذا كان ما ذكره سعد لبيب يعد من قبيل النقد .. فما سبب ذلك ؟ قال لي الاستاذ صبري العسكري محام الفنانة ماجدة انها فكرت في انتساج هذه الرواية للسينما ولكن الاصدقاء خوفوها من محاربه الصحافة لها .. فما زال بعض اشخاص الرواية يمارسون عنهم على الطبيعة حتى اليوم . واخرون يهيمون بان فتحي غانم نفسه به ملامح دقيقة من شخصية البطل ..

ولم نكلف انفسنا مشقة السعي وراء حقيقة هذه التكهات ، فما تهنا لذاتها ، وما نقلنا بعض الهمسات الا للدلالة على مدى واقعية القصة وتأثيرها على قرائها ، فالكتاب الناجح هو الذي يجسم مشاعر مجتمعه ويشارك في ابرازها دافعا اياه الى الامام ، حتى يحس الانسان انه احد عناصر القصة او كان من المحتمل ان يكون من عناصرها ، فهي صورة متحركة حية لاحساساته واحساسات المجتمع الذي هو فرد فيه .. وليس معنى ذلك ان الرواية نقلت كما هي من الواقع والا لكان مجرد آلة تصوير يسجل التجربة دون بلورة وصهر ، وهذا ما يناهس موهبه الخلق التي تميز الفنان عن عالم الاجتماع .. فعالم الاجتماع يستقرى الحوادث ويبني نتاجه عليها دون انفعال بها اما الفنان الخالق فيختلف عمله كل الاختلاف عن مجرد التسجيل المباشر للخبرة ..

اما افتا القصة فهما التقرير والتكرار ..

فقد زخرت الرواية بالمقالات الصحفية والحطب المنبرية وبعض المواقف المتعلمة وخاصة موقف يوسف كلما حاول اقناعنا بتأنيب ضميره له .. وان كان الشكل الروائي قد مكثنا من معرفة وجهة نظر كل شخصية الا ان جدة هذا الشكل على الكتابة العربية - واعني به تقسيم الرواية الى اجزاء ، يروي كل جزء احدى الشخصيات - قد اوقع الكاتب في رذيلة التكرار ، فكان يكرر الحدث الواحد من اوله اكثر من مرة لبيان وجهة نظر راويه وموقفه ازاء الامر الذي قد لا يستغرق اكثر من سطرين او ثلاثة في نهاية الحدث او من خلاله ، وهذا يشكك القاري في صدى ملازمة الشكل للموضوع ويحتم على الكاتب اختيار شكل اخر يناسب موضوع روايته ، الا انني ارى انه من الممكن التمسك بهذا الشكل مع تجنب التكرار الممل ببيان وجهة نظر الرواية دون اعادة سرد الحدث مرة اخرى طالما ان القاري على دراية به لسبق عرضه ، وطالما ان الرواية كل متكامل وليست قصصا متناثرة غير مترابطة . وقد سلم الجزء الذي تحكيه ميروكه من هذا التكرار لكونه الجزء الاول . وكذلك الجزء الذي يحكيه محمد ناجي لقصره واختلاف طريقه عرضه عن بقية الاجزاء .

*

واخيرا .. فرغم ايماني بان نظرة الناقد يلزم ان تكون نظرية موضوعية بحثية ، دون تحيز لاحدى الشخصيات ، فاني اعتذر للقاري لعدم مقدرتي على التخلص من حب ميروكه .. وقد يكون في ذلك تفسير للاطالة في الحديث عنها .. وان كنت ما زلت اعتقد انها جديرة ببحث مستقل ..

حلاوان - الجمهورية العربية المتحدة

محمد محمود عبد الرزاق